الفصل السادس

الحملة الصهيونية
على المنظور الدينى للقدس

الثابت أن القدس هى كل ما يحيط بالمسجد الأقصى من مساحات اتسعت أو ضاقت، والدليل على ذلك أن الله ـ سبحانه ـ فى القرآن الكريم أكد على أن الإسراء تم بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان المسجد الأقصى فى ذلك الوقت هو قبلة الصلاة قبل أن تتحول القبلة إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة.

واستهلت الآية الكريمة الحديث عن الإسراء برفعة ذات الله وتمجيده وتنزيهه عن كل شك فيما يقول، وذلك بقوله تعالى "سبحان الذى" وهو استهلال يأتى فى مقام العمل المعجز الذى لا يأتيه إلا الخالق، وسبحان الله عما يصفون، فى مقام التنزيه عن كل شك فى قدرته، فهو القادر الذى لا يُسأل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو بكل شىء عليم. بهذه الإشارة أكد القرآن أن الإسراء حق وإن جاوز أفهام الناس وتحدى مواقف الكفار ومعهم اليهود الذين أوغرت صدورهم منذ نزول الوحى بالدين الخاتم على

النبى الأمى، ما يعنى انتقال السيادة منهم إلى غيرهم حسب فهمهم الضيق. النقطة الثانية هى أن الله بارك فى كل رقعة تحيط بالمسجد الأقصى، فتمتد المباركة إلى كل رقعة مهما اتسعت ويُطلق عليها بيت المقدس. ونعالج هذين الموضوعين فى الفصول التالية، حيث تحاول إسرائيل أن تطمس العلاقة الدينية بين المدينة المقدسة وسائر المسلمين وتختزلها فى مضمون سياسى يخضع لقواعد اللعبة السياسية وميزان القوة المختل بين الطرفين الإسرائيلى والفلسطينى، مادام من شأن هذا المسعى الإسرائيلى حصر المشكلة بين الطرفين دون أن يكون للعالم الإسلامى دخل فى ذلك.

فقد كرَّم الله المكان إكرامًا لهذه البقعة الطاهرة. وإذا كان القرآن لم يذكر القدس فلأن المدينة نفسها اكتسبت التقديس والإسم من جوارها للمسجد الأقصى الذى كان مسجدًا حتى قبل أن يُبنى فى شكل المساجد المعروفة. فقد كان مكانًا يُسجد فيه لله بصلوات الأمم السابقة قبل أن يصدر التكليف فى رسالة محمد بالصلاة وما تتضمه من السجود فى مسجد كما هو معلوم. ويدلنا القرآن الكريم على أن تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام يشير إلى ثلاث دلالات: الدلالة الأولى أن الله ـ جلت قدرته ـ يتمتع بطلاقة القدرة وهو ـ سبحانه ـ صاحب الأمر والنهى فى تحديد القبلة للمصلين، فأينما تولوا وجوهكم فثَمَّ وجه الله، مؤكدًا فى بيانه الحكيم ولله المشرق والمغرب، فلا يجوز مناقشة ما يُعد من صميم تدبير الله تعالى عظمت قدرته، أو المجادلة البشرية فيما لا يفيد.

الدلالة الثانية هى أن سبب تحويل القبلة ليس قطعًا أن الله فضَّل البيت الحرام على بيت المقدس فكلها بيوت الله. وقد حاول المستشرقون أن يقدموا تفسيرًا لهذه الحادثة، أى تغيير القبلة، يتفق مع تفكيرهم المادى، فقالوا أن القبلة تعنى الرئاسة الدينية والتجارية والسياسية، وقد ظلت فترة فى يد الشام فى عهد المسيحية، وجاء الدور على العرب بعد أن نزل الدين الجديد، هذا هو السبب فى نظرهم فى تصدى اليهود والمسيحيين للدين الجديد.

الدلالة الثالثة هى أن القرآن أشار صراحة إلى أن الله - سبحانه - قرر تغيير القبلة إلى المسجد الحرام فى مكة رغم أن بيت المقدس كان لا يزال تحت سيطرة الرومان قبل أن يُفتح فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسبب ذلك التحويل هو لفتة إكرام لرغبة نبيه فى أن تظل صلاته صوب مكة لقوله تعالى: "قد نرى تقلب وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها..." وهو سر ظل رسولنا عليه الصلاة والسلام يحتفظ به بينه وبين ربه ولا يصارح أو يجاهر به أحدًا، حتى منَّ الله عليه بتحويل القبلة. ولا نزاع فى أن بيت المقدس مقدس عند أتباع الدين من أصحاب الرسالات السماوية الثلاث ولكل منهم آثار تدل عليه. وقد ركزت إسرائيل على ما تدعيه من آثار فى القدس لكى تدلل على أحقية اليهود دون غيرهم بها. وحتى بهذا المعيار فإن للمسلمين والمسيحيين آثارهم القاطعة فى أهمية المدينة المقدسة لهم. ولكن القضية لا يمكن أن تُحسم فى صدد تبعية المدينة بقدر ما فيها من آثار لأى من أتباع الرسالات الثلاث فتجرى المفاضلة بينهم على هذا

الأساس، وإنما حولت إسرائيل الأمر هذه الزاوية حتى تحطم مقدسات المسلمين، كما أن كل هذه المقدسات فى مكان يتبع فلسطين تحت الحكم العربى. ولو طبقا معيار إسرائيل لأصبح بيت لحم والمقدس ملكًا للمسلمين فى العالم، ولأصبحت المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة ملكًا لعموم المسلمين، وهو أمر يتناقض مع السيادة الإقليمية للدول التى يقوم عليها النظام الدولى. ولكن الحديث عن معايير تبعية المدينة سياسيًا أو دينيا شىء، والموضوع الذى نعالجه اليوم شىء مختلف؛ حيث تحاول إسرائيل بكل الطرق أن تنهى البعد الدينى القرآنى بالذات فى علاقة المسلمين ببيت المقدس، وهى تعلم قطعًا أن استعمار فلسطين بأكملها كبلد إسلامى أثار كل العالم الإسلامى. واطلعت على مذكرات وزير الدفاع الأمريكى عام ١٩٦٧ الذى حذَّر حكومته من مساندة قرار تقسيم فلسطين وتحويل اليهود من مهاجرين إلى مشاركين فى أرض فلسطين من غضبة الشرق الإسلامى الذى يشعر أن جزءًا من الأمة الإسلامية يتعرض للإغارة والاستلحاق.

فى ضوء الحقائق الدينية السابقة الثابتة ثبوت الحقائق القرآنية، عمدت إسرائيل، بعد حملاتها المتكررة لفصم العلاقة بين الإنسان والمكان فى القدس، وذلك بتهويد المدينة المقدسة بكل معنى الكلمة وتغيير هويتها الجغرافية والحضارية والسكانية، حتى تعدها لوهمها السياسى بالادعاء بأنها العاصمة الأبدية والدائمة لإسرائيل - عمدت إلى فك الارتباط بين الإسلام والمدينة المقدسة، تمامًا كما حاولت أن تدعى بأوهام الحقوق التاريخية التى تستعيدها فى هذه

الأيام. ولا شك أن الباحثين الصهاينة يبذلون جهودًا خارقة لتزوير الحقائق القرآنية وترويج نتائج أبحاثهم على أنها أكتشافات علمية وفكرية، جنبًا إلى جنب مع محاولات طمس الأسماء والأماكن حتى تنتهى الذاكرة الجغرافية والتاريخية.

فقد سبق للباحثين الصهاينة أن نشروا عام ٢٠٠٢ بحثًا مطولاً حول القدس فى القرآن الكريم، وحجتهم باختصار هى أنه بعد الاحتفال الكبير بالقرآن الكريم وكأنهم اكتشفوه وهو الذين عملوا على طمسه واختراقه بمختلف الإسرائيليات لزعزعة قدسيته فى نفوس المسلمين، عمدوا إلى الاحتفاء به من جديد. وسبب الاحتفاء الجديد هو أن القرآن أنصفهم وأكد لهم مقولاتهم على أنهم شعب مختار تعدد فيه أنبياء حكام على خلاف الأمم الأخرى. ولكن البحث الجديد قال ببساطة إنه ما دام أن القرآن لم يرد به كلمة بيت المقدس أو القدس فليس للمسلمين علاقة دينية أو تاريخية بها، وأن العلاقة سياسية، بدأت عندما استولى المسلمون من الرومان على بيت المقدس وأبَى حكامها أن يسلموها لقائد الجيش وأصروا على أن يكون التسليم سياسيًا؛ فتسلم منهم عمر مفتاح بيت المقدس بعد أن قدم لهم ما عُرف فى التاريخ الإسلامى بالعُهْدَة العُمَرِيَّة التى أمَّنهم فيها على أملاكهم ودينهم وكرامتهم، وهو عهد يشبه تمامًا دستور المدينة الذى وضعه الرسول ﷺ. فإذا أوهم اليهود العالم أن المسلمين لم يشر قرآنهم إلى بيت المقدس، فإن القضية هى قضية سياسية لا قدسية فيها وتكون القدس لمن غلب، وما دام اليهود هم الغالبون، فلا مجال إذًا لإثارة مشاعر المسلمين

وتحفيزهم للدفاع عن مكان لا قدسية له فى كتاب المسلمين، وبذلك تظل القدس مدينة السلام لليهود وعاصمة ملكهم القديم، وتكون مطالبتهم بها امتثالاً لأمر مقدس فى كتابهم.

ولما كان بيت المقدس مرتبطًا بالمسجد الأقصى وأن الرابطة الدينية بين رسولنا الكريم والمسجد الأقصى هى واقعة الإسراء ثم المعراج، فقد ركزت الأبحاث الصهيونية الحديثة على نفس واقعة الإسراء، والتأكيد على أنه حتى لو كان المسجد الأقصى قد اختير حقًا قبلة للمسلمين عندما فُرضت عليهم الصلاة، فقد استمرت سنوات قليلة منذ واقعة الإسراء التى تراها الأبحاث الصهيونية أكذوبة لبسط السيادة الدينية على بيت المقدس. ولكن الرد على هذه الترهات مرتبط بمرجعية المعلومات وهو القرآن الكريم الذى لا يعترفون به، بل إنهم كتبوا بأيديهم توراتهم حتى يكون على هواهم كما أخبرنا القرآن الكريم.

فقد أشرنا إلى أن الإسراء ثابت بنص القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الإخبار عن هذا الإسراء قد جاء بعبارة استهلال لإجلال الله وقدرته عن مقاييس العقول البشرية. فالذى خلق الإنسان من طين وخلق السموات بغير عَمَدٍ ترونها، وجعل عيسى وأمه آيتين لقادرٌ على أن يسرى بعبده ﷺ ولو كره المشركون، وما تقوله الدراسات الصهيونية الحالية لا تزيد على ما قيل عند وقوع الإسراء الذى اتخذه كفار مكة سندًا للطعن فى صدق الرسول الكريم والتشكيك فى عقيدة

أبى بكر الذى صدهم بمنطقه "أنصدقه فى خبر السماء ولا نصدقه فى الإسراء".

ولعلنا نلاحظ أن الدراسات الإسرائيلية المعروفة بالإسرائيليات قد بدأت منذ بداية الرسالة الإسلامية، ولكن التشكيك فى هذه المرة فى الإسراء دون المعراج، لأن الإسراء هو الانتقال الإلهى بالرسول ﷺ انتقالاً ماديًا من مكة إلى بيت المقدس والذى سماه القرآن الكريم الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فهى علاقة بين اثنين من أقدس بيوت الله على هذه الأرض، وليس انتقالا من مدينة إلى أخرى. وهو انتقال بين إقليمين متنافسين فى السيادة والتجارة. أما المعراج فهو لا يهم اليهود لأنه انتقال بالنبى الكريم من المسجد الأقصى إلى السماء حيث جرت الأحداث التى أخبر عنها النبى الكريم وأخبر عنها القرآن الكريم أيضًا. ومن الملاحظ أيضًا أن اليهود لم يشككوا فى القرآن الكريم نفسه بصفته معجزة النبى، وإنما شككوا فى بعض رواياته بطريقة انتقائية كما هى سنتهم فى النظر إلى الأشياء.

القصة كلها لن تنتهى ولكنها تهدف إلى فصم كل علاقة بين المسلمين وبيت المقدس، للقول بأن القضية سياسية. وقد أفصحت هذه الدراسات صراحة عن ذلك بقولها أنه يُخلص إلى أن قضية القدس لم تكن قضية دينية عند الفلسطينيين، ولكنها أصبحت قضية سياسية منذ احتلال القدس الشرقية عام ١٩٦٧ كما صارت هذه القضية جزءًا هامًا من مشروعات التسوية، والهدف من هذه النتيجة واضح ويمكن تلخيصه فيما يلى:

أولاً: أن القضية تخص الشعب الفلسطينى وحده ولا علاقة لها ببقية المسلمين لأنها ليست قضية دينية، بعد أن أكدت الدراسات الصهيونية عدم وجود رابطة دينية فى القرآن الكريم.

ثانيًا: أن القضية مادامت سياسية لا دينية، فإن تسويتها تخضع للقواعد السياسية وأوضاع وموازيين القوة، وهى تسوية ثنائية بين إسرائيل والفلسطينيين، وليس فى القضية مقدس يمتنع المساس به أو التضحية فى سبيله.

ثالثًا: فك الارتباط بين الدينى والسياسى فى قضية القدس يُعد أكبر انتصار لإسرائيل، لأنه يفتح الطريق إلى إزالة العداء بينها وبين العالم الإسلامى الذى لا تربطه بالقضية الفلسطينية سوى قضية القدس، وبالتحديد منذ حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩.

وأخيرًا، فإن مُؤَدى الطرح الصهيونى هو أن منظمة المؤتمر الإسلامى لم يعد لها سبب للبقاء لأنها قامت من أجل القدس باعتبارها الرابط لكل المسلمين، بل إن ميثاق المنظمة جعل عاصمتها القدس الشريف وأن بقاءها فى جدة مؤقت إلى أن يتم تحرير القدس التى تحررت مرة من الصليبيين، ويرجى تحريرها من الصهاينة الغاصبين.

والفرق بين الغصب الصليبى والغصب الصهيونى هو أن الغصب الصهيونى يعتبر كل فلسطين هى إسرائيل القديمة وعاصمتها أورشليم، أى مدينة السلام أى القدس، وأن إسرائيل هى التجسيد الحى لاسترداد فلسطين والقدس.

ألا تلاحظ أن اجتهاد البحوث الصهيونية فى نفى الصلة الدينية الإسلامية يتناقض مع اعتماد المشروع الصهيونى على الرابطة الدينية الموهومة بفلسطين والقدس؟ أم أن الصهاينة أحرار فى حشد الدين وتسخيره لحججهم بينما يزوِّرون الحقائق القرآنية على هواهم؟

وقد أعلن د. محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف المصرى فى محاضرة بدار الأوبرا المصرية يوم ٢٠٠٧/٩/٢٧ ما سبق أن أعلنه شيخ الأزهر عام ٢٠٠١، من أنه قد يكون من المفيد أن يقوم المسلمون بزيارة القدس والمسجد الأقصى دعمًا للفلسطينيين ولشد أزرهم فى التصدى للصهاينة الذين يتآمرون على المدينة ومسجدها الأقصى، كما سوف يفيد الفلسطينيون من المساندة السياسية للمسلمين فى هذا الشأن، فضلاً عن الدعم الاقتصادى إذا تدفق السياح المسلمون إلى هذه الأراضى المقدسة.

ولا شك أن الدوافع لهذه الدعوة نبيلة ومراميها مشكورة ولكن استغلال إسرائيل لها سوف يفسد الآثار المتوقعة خاصة وأن إسرائيل ماهرة فى استغلال كل المناسبات، وسوف تمنح تأشيرات الدخول للداخلين مما يفتح الباب لأوسع عملية تطبيع إسلامية مع إسرائيل، فيكون الاقتراح فتحًا مبينًا لها وتدميرًا كاملاً لجدار العزلة الإسلامية ضدها.